



بإشراف الشيخ أبي الحسن علي الرملي

تفريغ دروس (شرح السنة للبرهاري)

شرح الشيخ (علي الرملي) حفظه الله

المستوى الثاني

الدرس رقم (6)

التاريخ: الأحد 18/ ذو القعدة/ 1440 هـ

21/ تموز/ 2019 م

الدرس السادس من شرح السنة للبرهاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد

فوقفنا عند قول المؤلف: (واعلم رحمك الله أن الكلام في الرب تعالى مُحدثٌ وهو بدعة وضلالة ولا يُتكلّم في الرب إلا بما وصف به نفسه عز وجل في القرآن وما بين رسول الله ﷺ لأصحابه، فهو جلّ ثناؤه واحد {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، ربنا أول بلا متى، وأخر بلا منتهى، يعلم السر وأخفى، وهو على عرشه استوى، وعلمه بكل مكان، ولا يخلو من علمه مكان)

وذكرنا أنه بدأ بمسألة الأسماء والصفات، وبعد أن أصّل لنا أصول السلفية، أصول المنهج؛ بدأ بتأصيل مسائل الأسماء والصفات، ثم أخذ يذكر بعض الصفات التي خالف فيها أهل البدع والضلال؛

فقال هنا: (فهو جلّ ثناؤه واحد) أي: أن الله سبحانه وتعالى واحد في ذاته، واحد في أسمائه وفي صفاته، لا يشاركه في أسمائه وفي صفاته أحد، فله الأسماء الكاملة وله الصفات الكاملة، وهذه الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله فيها إثبات لصفات الله تبارك وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وفيها أيضاً نفي لمماثلته المخلوقين؛ فقال: ﴿ليس كمثله شيء﴾، هذا رد على المشبهة الذين يثبتون الصفات لله سبحانه وتعالى ويمثلونها بصفات المخلوقين فيقولون: له عين كأعيننا، له يد كأيدينا وهكذا؛ هؤلاء مردود مذهبهم الباطل بقول الله ﴿ليس كمثله شيء﴾، وقد قال الإمام نعيم بن حمّاد - شيخ الإمام البخاري وغيره - قال: (من شبه الله بخلقه فقد كفر)⁽¹⁾. ثم ذكر المؤلف قول الله تبارك وتعالى ﴿وهو السميع البصير﴾؛ وهذه رد على المعطلة،

- فالجزء الأول من الآية هو رد على المشبهة
- والجزء الثاني منها هو رد على المعطلة الذين يعطّلون الله عن صفاته؛

¹ - "العلو" للذهبي (464)، "عقيدة الحافظ تقي الدين المقدسي" (214).

فلا يثبتون لله تبارك وتعالى الأسماء والصفات التي أثبتها لنفسه في الكتاب أو في السنّة؛ هؤلاء هم المعطلّة ومنهم الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فهذه الآية هي رد على طائفتين أو هي رد على أهل الإفراط وعلى أهل التفريط، وأهل السنّة هم أسعد الناس بالأخذ بطرفي الآية فهم الوسط بين تلك الفرق؛ فيثبتون لله الأسماء والصفات كما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف هذا هو مذهبهم.

قال: **(ربنا أول بلا متى)**: أي أن الله سبحانه وتعالى هو الأول وليس لأوليّته وقت وزمن، فلا يقال: هو في الوقت الفلاني بدأ، لا؛ هو أولٌ سبحانه وتعالى من غير أن يقال متى كانت أوليته، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾⁽¹⁾، فهو الأول قديمٌ بلا ابتداء؛ كما قال بعضهم؛ وإن كانت كلمة قديم ليست دقيقة، ونقول: هو الأول كما قال الله سبحانه وتعالى، فهي فقط للتفهم، نقول هو أول بلا متى: يعني لم يكن لأوليّته وقت معيّن.

(وآخر بلا منتهى) أي: أن الله سبحانه وتعالى باقٍ حيٌّ وليس لبقائه فناء وليس لحياته منتهى، لا تنتهي حياته في وقت من الأوقات وبقاؤه لا يفنى أبداً. **(يعلم السرّ وأخفى)**، **(يعلم السر)** يعني: يعلم ما تحدّث به نفسك، **(وأخفى)** أي: ويعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما لم تحدّث به نفسك.

قال: **(وهو على عرشه استوى وعلمه بكل مكان ولا يخلو من علمه مكان)**

إذاً الذي ذكره عندنا المؤلف رحمه الله في هذه الفقرة أن الله تبارك وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وجاء تفسير (الأول) في كلام النبي ﷺ فقال: "أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء"⁽²⁾ وهذا خير تفسير تفسّر به الأول والآخر،

وفي نفس الحديث: "وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء"، فقلوه: "وأنت الظاهر فليس فوقك شيء" تدل على علوّ الله تبارك وتعالى كما سيأتي التفصيل في ذلك،

¹ - [الحديد: 3].

² - أخرجه مسلم (2713) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأصله عند البخاري (6320).

"وأنت الباطن فليس دونك شيء"؛ فهو باطنٌ في علمه تبارك وتعالى، فيعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء؛ هكذا فسر السلف رضي الله عنهم هذه الفقرة من الحديث.

ثم قال: **(يعلم السر وأخفى)** هذا فيه إشارة إلى مسألة العلم -علم الله تبارك وتعالى-، وأن علمه تامٌ كامل في كل شيء وليس في شيء دون شيء، فعلم الله سبحانه وتعالى كامل كما سيأتي إن شاء الله ذكر الأدلة على ذلك.

قال: **(وهو على عرشه استوى، وعلمه بكل مكان ولا يخلو من علمه مكان)**،

الذي يريد المؤلف رحمه الله أن يوصله لنا هنا أن الله سبحانه وتعالى متّصف بصفة العلو؛ علو الله على خلقه وهذه صفة يتّصف بها ربنا تبارك وتعالى، وأدلة وصفه بذلك متواترة، حتى قال بعض أهل العلم: (أدلة علو الله على خلقه تبلغ الألف دليل أو أزيد)⁽¹⁾

وقد جمع في ذلك الإمام الذهبي رحمه الله مصنفًا مستقلاً في الأدلة من الآيات والأحاديث والآثار التي تدل على علو الله على خلقه وهو كتاب "العلو"، وقد اختصره الإمام الألباني رحمه الله في مختصر نفيس اسمه "مختصر العلو"، وهو من أفضل ما أُلّف في هذه المسألة، فمن أراد أن يستزيد فيها فليقرأ هذا الكتاب.

وأدلة علو الله كثيرة؛

منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁽²⁾ فسّر أبو العالية الرياحي -وهو أحد أئمة التابعين، وأخذ عن جمع من أصحاب النبي ﷺ - (استوى)؛ فقال في الاستواء: العلو والارتفاع، وهذا تفسير سلفي.

وفي هذه التفاسير التي نذكرها عن السلف رضي الله عنهم رد على المفوضة الذين يزعمون أن السلف كان مذهبهم مذهب التفويض، هذا باطل؛ لأن هذه الكلمات من السلف تبين لنا أن السلف كانوا يعلمون معاني الصفات ويؤمنون بها، أما المفوضة فيقولون نحن نثبت الاستواء لله سبحانه وتعالى لكننا نجعل معنى الاستواء، لا نعرف معناه، ونفوض المعنى لله سبحانه

¹- قال ابن تيمية في "الفتاوى" (226/5): (قَالَ بَعْضُ كِبَارِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ: فِي الْقُرْآنِ أَلْفُ دَلِيلٍ أَوْ أَزِيدُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَالٍ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: فِيهِ ثَلَاثُمِائَةِ دَلِيلٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ..)

وتعالى، فيؤمنون به كلفظ فقط خالٍ عن معناه؛ وهذا باطل، السلف ما كانوا على هذا؛ كانوا يقولون في الصفات: (أمروها كما جاءت بلا كيف)،

أي: على مقتضاها العربي، قد جاءت على المقتضى العربي؛ فأمرّوها كما جاءت على مقتضاها العربي ولا تحرفوها عن معانيها الصحيحة، هذا المعنى الذي كان يذكره السلف رضي الله عنهم، وأحياناً تجدهم يقولون:

- (من غير تفسير)

- أو (من غير معنى)،

ومعنى قولهم: (من غير تفسير) و (من غير معنى): أي من غير المعنى الذي ذهبت إليه الجهميّة، ومن غير التفسير الذي ذهبت إليه الجهميّة، ويوجد من ألفاظهم ما يدل على أن مرادهم بذلك هذا المعنى، وممن استعمل هذه الكلمات الإمام أحمد رحمه الله قال: (ومن غير معنى)⁽¹⁾،

ثم هو يفسّر معاني الصفات رضي الله عنه ورحمه، إذأ هذا يدلنا على أن السلف رضي الله عنهم كان مذهبهم هو الإيمان بالصفات لفظاً ومعنىً ويفوضون فقط الكيفية؛ لأن الكيفية ما ذكرت لنا لا في الكتاب ولا في السنّة؛ لذلك يفوضونها إلى الله سبحانه وتعالى،

أما المعاني: فعلى مقتضاها العربي؛ لأن النبي ﷺ ما ذكر بأنها مخالفة للمقتضى العربي الذي نزل به القرآن فتبقى على حقيقتها؛ فقال أبو العالية الرياحي في معنى استوى: (علا وارتفع)، وهذا قد صحّ عنه رحمه الله⁽²⁾، وبين لنا معنى هذه الكلمة، إذأ معنى الاستواء عند السلف رضي الله عنهم العلو والارتفاع، وأما أهل التعطيل الذي ينفون علوّ الله تبارك وتعالى فلهم تحريفات لهذه الآيات سيأتي ذكرها إن شاء الله.

أما الدليل الثاني فقول الله تبارك وتعالى: ﴿أأنتم من في السماء﴾⁽³⁾، والذي في السماء هو الله سبحانه وتعالى، ومعنى {في السماء} هنا إمّا أن يقال (في) بمعنى (على)، وهذا معروف في لغة

¹ - "تحريم النظر في كتب الكلام" لابن قدامة (ص39)، وتتمّة الكلام: "إلا على ما وصف به نفسه سبحانه وتعالى، وهو كما وصف نفسه سميع بصير. وأنكر صحتها عنه بعض أهل العلم.

² - علقه البخاري في "صحيحه" (124/9): "قال أبو العالية: ﴿استوى إلى السماء﴾: "ارتفع" ... وقال مجاهد: ﴿استوى﴾: "علا"

³ - [الملك: 16]

العرب: ﴿وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ﴾⁽¹⁾ أي على جذوع النخل، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾⁽²⁾ أي على مناكبها؛ وهكذا، ف (في) تأتي بمعنى (على) في لغة العرب، وهذا معروف؛ لذلك إما أن يقال:

- (في السماء) بمعنى: (على السماء)،
- أو أن يقال: (السماء بمعنى العلو)؛ لأن السماء في لغة العرب تستعمل بمعنى العلو، فالله سبحانه وتعالى في العلو؛ هذه الآية الثانية.

ومن الأدلة قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾⁽³⁾ إليه، أي: إلى الله سبحانه وتعالى، وكذلك قوله لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾⁽⁴⁾، والآيات في هذا المعنى كثيرة تدل على علو الله على خلقه.

وأهل التعطيل لا يؤمنون بعلو الله على خلقه، ويكذبون بذلك ويقولون:

- إذا أثبتنا علو الله على خلقه يلزم من ذلك أن يكون في جهة،
- وإذا كان في جهة لزم من ذلك أن يكون جسماً،
- وإذا قلنا بأنه جسم فهو مخلوق وليس بخالق؛

هكذا اللوازم التي يأتون بها من عقولهم القاصرة، ونقول لهم: هذه اللوازم كلها ليست بلازمة، والله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه كما أخبر في كتابه وكما صحّت الأحاديث في السنن عن النبي ﷺ وكما جاء في الآثار عن السلف رضي الله تعالى عنهم، ومن أصرح الأحاديث في ذلك حديث الجارية، قال لها النبي ﷺ: "أين الله؟"، قالت: في السماء، قال: "أعتقها فإنها مؤمنة"⁽⁵⁾؛ فشهد لها بالإيمان لما أقرت بأن الله في السماء؛ لأنهم كما تعلمون كانوا يعبدون الآلهة التي على الأرض، فأراد النبي ﷺ أن يعلم هل تعبد الذي على

¹ - [طه: 71]

² - [الملك: 15]

³ - [فاطر: 10]

⁴ - [آل عمران: 55]

⁵ - أخرجه مسلم (537) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

الأرض أم الذي في السماء؛ فقال لها "أين الله؟" أي: الذي يستحق أن يُعبد، فقالت: في السماء، فعلم أنها موحدّة؛ لذلك قال: "أعتقها فإنها مؤمنة".

هذه بعض الأدلة، ومن أراد بقية الأدلة فليرجع إليها في "مختصر العلو".

علمنا أن من عادة أهل البدع أنّهم يتعلّقون بالمتشابهات ويتركون المحكمات، وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخرُ

متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾⁽¹⁾، إذاً الأدلة الشرعية تنقسم إلى أدلة محكمة وأدلة متشابهة.

الدليل المحكم: هو الدليل الذي لا يعطيك إلا معنى واحد ليس فيه اشتباه ولا يشكّل.

أما الدليل المتشابه: فيعطيك أكثر من معنى ويشتبه الأمر عليك.

هذا هو الفرق بين الدليل المحكم والدليل المتشابه، فأهل البدع الذين في قلوبهم زيغ كما وصفهم الله تبارك وتعالى يتركون الأدلة المحكمة ويتعلّقون بالمتشابهات؛ يريدون من ذلك الفتنة؛ أن يفتنوا الناس عن دينهم، ولا تكاد تجد مسألة إلا وتجد لها أدلة محكمة وأدلة متشابهة، كثير من المسائل على هذا النحو؛ ابتلاء من الله تبارك وتعالى، يبتلي العباد ويختبرهم حتى يتميز الخبيث من الطيّب، ويُعلّم من يريد الحق ممن يريد الباطل؛ لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى جعل الأدلة الشرعيّة على هاتين الصفتين.

هنا عندنا في هذه المسألة أدلة متشابهة يتعلّق بها أهل الباطل؛ من هذه الأدلة: الأدلة التي وردت في المعية؛ لذلك فإن المؤلف - رحمه الله - ذكر الاستواء على العرش ثم ذكر العلم؛ لأن المعية التي يدندنون حولها هي حقيقة جاءت في العلم، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وهو معكم أين ما

كنتم﴾⁽²⁾، و﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾⁽³⁾، إلى آخر

الآيات، هذه الآيات يستدل بها هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى ليس في العلو بل الله سبحانه وتعالى

¹ - {آل عمران: 7}

² - [الحديد: 4]

³ - [المجادلة: 7]

في كل مكان، وهؤلاء الجهمية القدامى، كانوا يقولون بأن الله سبحانه وتعالى في كل مكان ويستدلون بهذه الآيات ويتركون الأدلة المحكمة التي ذكرناها.

وهذه الآيات وردت أصلاً في العلم؛ لذلك تجدها قد بُدئت بالعلم وختمت بالعلم، وابن تيمية رحمه الله في "عقيدته الواسطيّة" ذكر أدلة العلو، فذكر مجموعة من الأدلة التي تدل على علو الله تبارك وتعالى ثم ذكر أدلة المعية- وهذه المعية العامّة وسيأتي أن المعية تنقسم إلى قسمين- ذكر رحمه الله آية: ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾،

لاحظ هذه الآية؛ قرر الله سبحانه وتعالى فيها أنه علا وارتفع على عرشه، ثم قال عز وجل: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ يعني ما يدخل في الأرض وما يخرج من الأرض، ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ وما يصعد في السماء،

﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾⁽¹⁾، عن ماذا يتحدّث الله عز وجل أثناء الآية حين قال: ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾؟ يتحدّث عن العلم؛ إذاً فهو معكم بعلمه يعلم كل شيء لا يفوته علم شيء.

وكذلك ذكر الآية الأخرى وهي: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ يتحدّث عن العلم، فكل الكلام كان في سياق العلم؛ إذاً فالمقصود من هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء تفعلونه وكل شيء يحصل في هذا الكون، لا يعزب عنه علم شيء، وأدلة علم الله تبارك وتعالى كثيرة، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾⁽²⁾، ﴿وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم﴾⁽³⁾، ﴿ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾⁽⁴⁾،

¹ - [الحديد: 4]

² - [آل عمران: 5]

³ - [الأنعام: 60]

⁴ - [الأنعام: 59]

هذه الآية ما تركت شيئاً إلا وذكرته، فكل شيء يعلمه الله تبارك وتعالى، هذه الآيات تدل على عِظَم علم الله تبارك وتعالى وأنه يعلم كل شيء، والآيات المتشابهة التي يتعلّقون بها كلها سياقها يدل على أنها في العلم وليست في ذات الله سبحانه وتعالى؛ يعني الله سبحانه وتعالى ليس معنا بذاته يخالطنا؛ لا؛ الله سبحانه وتعالى في العلو وعلمه في كل مكان؛ هذه عقيدة السلف رضي الله عنهم؛ لذلك قال هنا: **(وعلمه بكل مكان ولا يخلو من علمه مكان)** فلا تعارض ما بين أن الله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه وبين أنه معنا أين ما كنّا؛ لا تعارض بين الأمرين؛ فعلوّه بذاته وهو معنا بعلمه.

والمعِية كما ذكرنا تنقسم إلى قسمين:

• معِية عامة، وهي التي ذكرناها قبل قليل، أي أن الله سبحانه وتعالى معنا بعلمه، وهي معِية عامة شاملة للكفار وللمسلمين.

• وهناك معِية خاصة وهي معِية النصر والتأييد،

وهذه المعِية خاصة بالمؤمنين؛ لذلك فإن ابن تيمية رحمه الله ذكر في "العقيدة الواسطية" أدلة العلو، ثم ذكر أدلة المعِية العامة وهي المعِية بالعلم، ثم ذكر أدلة المعِية الخاصة، فذكر آية ﴿لَا تَحْزَنُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ﴾⁽¹⁾، أي: ينصرنا ويؤيدنا، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾⁽²⁾، فالآية

الأولى في النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، والآية الثانية في هارون وموسى عليهما السلام، فالله سبحانه وتعالى يؤيد المؤمنين ويؤيد أنبيائه وينصرهم، فمعنى المعِية هنا معِية التأييد والنصرة.

وكذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾⁽³⁾ فهنا كذلك بالتأييد والنصرة، هذه الأدلة التي تدل على المعِية الخاصة.

إذاً المعِية قسمان: معِية عامة وهي معِية العلم وتشمل المسلمين والكفار، ومعِية خاصة وهذه خاصة بالمؤمنين، والمقصود بها معِية التأييد والنصرة، فالله سبحانه وتعالى مع المؤمنين يؤيدهم

¹ - [التوبة : 40]

² - [طه : 46]

³ - [النحل : 128]

وينصرهم، وليس معنى ذلك أنه معهم بذاته يخالطهم؛ لا بل الله سبحانه وتعالى عالٍ على عرشه فوق جميع خلقه؛ فالعرش فوق السماوات السبع كما هو متفق عليه، وإذا قلنا: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾؛ فالله سبحانه وتعالى يكون عالٍ على جميع خلقه.

هذه هي الصفة التي أراد المؤلف رحمه الله أن يبينها في هذا الموطن، وعرفنا شبهة أهل البدع الذين لا يؤمنون بها ويردونها، وهي شبهة ضعيفة، وكل شبهاتهم تدور حول أصل واحد: وهي أن هذه الصفات إثباتها يعارض العقل، وإذا تعارض العقل مع النقل يقدم العقل؛ هذه شبهتهم الأساسية وعلى هذا يسиров، ثم بعد ذلك يبدوون بتحريفات هذه النصوص؛ لأن عندهم الأدلة العقلية تدل على أن هذه الصفات مؤداها إلى التشبيه، والتشبيه ينزه الله سبحانه وتعالى عنه؛ إذاً لا بد أن تحرف هذه الأدلة عن معانيها الصحيحة؛ لأنها عارضت العقل الذي هو أقوى منها؛ هكذا هم يقولون، يقولون العقل دلالتة أقوى من دلالة القرآن، فإذا تعارضت مع الأدلة العقلية مباشرة تحرف هذه الأدلة عن معانيها الصحيحة، لا يهتمون لأي معنى يحرفونها، المهم أن لا يؤخذ منها المعنى الصحيح؛ وهو إثبات الصفة.

هنا الاستواء فسروه بمعنى الاستيلاء حتى يتخلصوا من هذا، وهذا معنى فاسد مردود عليهم، ردّه عليهم العلماء بقولهم: بأن هذا السياق أصلاً لا يحتمل أبداً في لغة العرب أن يكون فيه معنى (الاستواء): الاستيلاء؛ لأنه عُدّي بحرف الجر (على) ولا يعدّي الاستواء بحرف الجر (على) ويكون معناه الاستيلاء.

ثم معنى الاستيلاء معنى باطل في حق الله سبحانه وتعالى، فمعنى الاستيلاء: أن يكون قد غالب غيره، وغلبه واستولى عليه منه، وكان تحت حكم شخص آخر ثم غلبه الله سبحانه وتعالى وأخذه منه؛ هذا معنى الاستيلاء، وهو معنى فاسد، وردود أهل العلم طويلة عليهم في هذا، وبطلانه واضح وظاهر، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون ذلك ولكن ما وجدوا سبيلاً إلى تحريفه إلا بهذه الطريقة.

وأما: ﴿أأنتم من في السماء﴾ فيقولون لك: المقصود بمن في السماء هم الملائكة، وهكذا يفسرون بهذه التفسيرات، ونحن نرد عليهم ونقول: هذه التفسيرات كلها خلاف ظاهر كتاب الله



سبحانه وتعالى، الظاهر من الكتاب والظاهر من لغة العرب أن معانيها على المعنى الحقيقي الذي حملها أهل السنّة والجماعة، وهم يقرّون بهذا، فإذا أقرّوا بأن هذا هو الظاهر؛ نقول لهم بعد ذلك: التأويل يحتاج إلى دليل شرعي، وليس عندكم دليل شرعي، إنما تتعلّقون بأدلة عقولكم التي هي في نفسها مضطربة ومتخبّطة، والدليل على اضطرابها: أنهم هم أنفسهم لا يتّفقون على شيء واحد؛ بل هم يختلفون في أنفسهم؛

- فالجهمي يخالف المعتزلي،

- والمعتزلي يخالف الأشعري،

- والأشعري يخالف الماتريدي،

- والماتريدي يخالف الكلّابي؛ وهكذا،

فيتضاربون فيما بينهم، فعقل من الذي نريد أن نتحاكم إليه؟ وأي عقول هذه التي يتحاكم إليها في مثل هذا الموقف؟ هي عقول قاصرة وفاسدة وشبهات أدخلها عليهم الشيطان وتلقّفوها منه، ثم أخذوا يلبّسون على الناس في أمر دينهم.

خلاصة ما عندنا في هذا المبحث: أننا نثبت علو الله تبارك وتعالى على خلقه بالأدلة الشرعية التي معنا، ونثبت معيّة الله وتبارك وتعالى لخلقهم؛ المعيّة العامّة والمراد بها: العلم، ونثبت لله أيضاً المعيّة الخاصّة وهي خاصة بالمؤمنين، والمراد بها التأييد والنصرة هذا خلاصة هذا المبحث.

ثم قال المؤلف رحمه الله: **([12] ولا يقول في صفات الرّبّ تعالى: كيف؟ ولم؟ إلا شاكٌّ في الله تبارك وتعالى).**

صفات الله لا يجوز لك أن تسأل فيها عن الكيفيّة؛ لماذا؟

لأن الكيفية لا تُعلم إلا بالدليل الشرعي، ولا يوجد دليل شرعي يدل عليها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بها لا في الكتاب ولا في السنّة، فإذا لم يخبرنا بها؛ إذاً فنسكت عنها ولا نسأل عن الكيفيّة، والأصل في ذلك من كلام السلف ما جاء عن الإمام مالك رحمه الله تعالى قال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة)، هذا هو الأصل الذي أُصّل في هذا، وعليه سلف الأمة رضي الله عنهم.

ولا يقال: (ولم؟) لا يُعترض؛ لا يُسأل عن التعليل، ولا يعترض على أحكام الله سبحانه وتعالى، جاءك الحكم تأخذه بالقبول والتسليم، لا تسأل عن العلل، عن تعليل الأمور، لا تسأل في مسائل القدر: لم فعل الله سبحانه وتعالى كذا؟ لم لم يفعل كذا؟ لم وصف نفسه بكذا؟ لم لم يصف نفسه بكذا؟

هذه كلها مرفوضة في شرع الله، وهي من البدع المحدثات؛ فلا يجوز أن يفعل ذلك، ولا يفعل ذلك إلا شخص شاك في الله تبارك وتعالى كما قال المؤلف؛ وإلا لما وصل لهذه الأسئلة.

قال المؤلف رحمه الله: **([13] والقرآن كلام الله وتَنْزِيلُهُ ونورُهُ، وليس مخلوقاً؛ لأن القرآن من الله، وما كان من الله فليس بمخلوق، وهكذا قال مالك بن أنس وأحمد بن حنبل رحمهم الله ومن قبلهما من الفقهاء ومن بعدهما، والمرء فيه كفر).**

هذه مسألة ثانية من مسائل صفات الله سبحانه وتعالى، وأعظم مسائل الصفات التي خالف فيها أهل الضلال أهل السنة والجماعة؛ هي ثلاث مسائل:

١- صفة علو الله تعالى على خلقه التي تقدّمت،

٢- والثانية: صفة الكلام،

٣- الثالثة: صفة رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛

هذه أعظم ثلاث صفات خالف فيها أهل البدع وصارت شعاراً مشهوراً على أهل البدع والضلال، وصارت أيضاً شعاراً لأهل السنة والجماعة في مخالفتهم؛ لذلك تجد بعض أهل العلم يذكر هذه الصفات الثلاثة خلف بعضها، ويؤكد عليها أكثر من غيرها؛ ذكر المؤلف صفة العلو، ثم ثنى بصفة الكلام، وذكر أن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ وهذه المسألة متفرّعة عن إثبات صفة الكلام لله تبارك وتعالى؛ فمن ثبت صفة الكلام لله تبارك وتعالى كلاماً حقيقياً بحرفٍ وصوت؛ يقول: القرآن غير مخلوق وهو كلام الله تبارك وتعالى؛ لأنه ليس عنده مشكلة؛ فالله سبحانه وتعالى يتكلم كلاماً حقيقياً،

لكن من قال: بأن الله لا يتكلم كلاماً حقيقياً يُشكّل عليه هذا القرآن؛ ما هو إذاً هذا؟ يقول لك: هذا مخلوق وليس كلام الله سبحانه وتعالى؛ من هنا جاءت هذه المسألة؛ مسألة: هل

القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟

نرجع إلى المسألة الكلام؛ هل الله سبحانه وتعالى يتكلم كلاماً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته أم لا؟

أهل السنة والجماعة يقولون: الله سبحانه وتعالى يتكلم كلاماً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته، والأدلة على ذلك كثيرة ساقها العلماء في كتبهم؛ من ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ

موسى تكليماً﴾⁽¹⁾، هنا أكد الله تبارك وتعالى الكلام بالمصدر الذي يقتضي الحقيقة وينفي المجاز

فلا مجال للقول بالمجاز في هذه الآية ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ موسى تكليماً﴾، إذاً الكلام حقيقي لا إشكال فيه؛ لذلك لما أشكلت على بعض أهل البدع؛ اضطرّ إلى تحريفها حتى يتخلّص منها - هذه الآية نص في المسألة وآية محكمة ليس فيها أي شبهة ولا أي إشكال، لكن لما تمكّن الباطل من قلوبهم - نعوذ بالله - لم يخضعوا ويسلموا لكلام الله تبارك وتعالى - أراد أن يتخلّص منها بأي طريقة؛ فوصل به الحال إلى أن حرّف كتاب الله تبارك وتعالى فقرأها: (وكلّم الله موسى)⁽²⁾؛ حتى يجعل المتكلم هو موسى وليس ربنا تبارك وتعالى؛ فلما سمع أحد علماء المسلمين قال: (وماذا يفعل هذا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكلّمه ربه﴾)⁽³⁾(4) كيف سيفعل بها؟

فإذاً الكلام صفة حقيقية لله سبحانه وتعالى يتكلم كلاماً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته، والجهميّة نفت هذا وقالت: يلزم من هذا التشبيه، ويلزم من هذا حلول الحوادث في الله سبحانه وتعالى، ويعنون بالحوادث المخلوقات، وما تحلّه المخلوقات فهو مخلوق؛ هكذا، كلها لوازم عقلية - أي نعم -، وهو كلّ باطل؛ الله سبحانه وتعالى يتكلم كلاماً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته، ويتكلم بحرفٍ وصوت.

لماذا نركّز على هذه الكلمة: (أنه يتكلم بحرفٍ وصوت)؟

¹ - [النساء: 164]

² - بنصب لفظ الجلالة، ورفع موسى

³ - [الأعراف: 143]

⁴ - نقل ابن القيم هذا الفعل عن أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة في "الصواعق المرسلة" (107/3).

رداً على الفئة الثانية وهم الأشاعرة؛ الأشاعرة جاءت بقولٍ مُحدثٍ جديد غير قول الجهميّة، أرادوا أن يجمعوا بين قول الجهميّة وقول أهل السنة فخرجوا بقول جديد؛ ما هو؟ هو الكلام النفسي، خرجوا بالكلام النفسي؛ فقالوا: الكلام ينقسم إلى قسمين:

- كلام معنوي

- وكلام لفظي،

الكلام المعنوي هذا كلام نفسي يكون موجوداً في النفس لكنه ليس ألفاظاً ليس بحرف ولا صوت، كلامٌ يكون في النفس، فالله سبحانه وتعالى له كلام نفسي، ويُثبتون الكلام النفسي، ويقولون: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ كلام الله نفسي وليس حقيقياً.

طيب ما هذا القرآن الذي بين أيدينا؟ يقولون: إذا أراد الله أن يعبرَ عمّا في نفسه خلق شيئاً فعبرَ به، فيتكلّم جبريل بالقرآن أو يتكلّم محمد ﷺ بالقرآن، فيكون مخلوقاً من عند الله تبارك وتعالى عبرَ به عمّا في نفسه؛ لذلك يقولون: هو عبارة عن كلام الله تبارك وتعالى، وليس هو كلام الله سبحانه وتعالى، فيجعلون الكلام كلاماً نفسياً وليس كلاماً حقيقياً، أي: إنه لا يتكلّم بحرفٍ وصوت، يعني: كلامه الذي هو صفة له ليس مسموعاً لأحد، لا يسمعه أحد؛ لأنه ليس حرفاً وصوتاً؛ هذا مذهب الأشاعرة الذين حاولوا أن يجمعوا بين عقيدة الجهميّة وعقيدة أهل السنّة، فخرجوا بقول مبتدع جديد.

أصول الأشاعرة هي أصول الجهميّة، لم تختلف؛ الأصول الأساسية التي قام عليها دينهم هي نفسها أصول الجهميّة، فالأصل الذي يجتمع عليه الجميع: تقديم العقل على النقل، والكلام في ذات الله وفي صفات الله تبارك وتعالى بالعقول؛ هذا أصلهم جميعاً، المتكلّمون جميعاً من جهميّة، معتزلة، أشاعرة، ماتريدية، كلابية... إلى آخره؛ كلهم على هذا الأصل، فلا يأتي أحد يقول لنا: والله الأشاعرة من أهل السنّة والجماعة؛ من أين لهم أهل السنّة والجماعة؟ السنيّ يمتاز بأنه يقدّم الكتاب والسنّة على كل شيء، ويعظّم الكتاب والسنّة، ويسلم وينقاد للكتاب والسنّة، وهؤلاء ليس عندهم شيء من هذا؛ فكيف يقال هم أهل سنّة؟ وهل الذي قرّروه في العقائد أو في غيرها هو على طريقة أهل السنّة والجماعة؟ من أين يكونون أهل سنّة وجماعة؟

السلف كانوا يحكمون على أهل الضلال بضلالة واحدة يخرجون بها كالخوارج والمرجئة والشيعة وغيرهم؛ فيحكمون عليهم بالضلال وأنهم فرقة ضالّة بمسألة واحدة؛ فما بالك بهؤلاء الأشاعرة الذين خالفوا أصولاً لأهل السنّة وليس أصلاً واحداً؟ فهذا القول باطل وصاحبه أراد أن يميّع دين الله سبحانه وتعالى وأن يخلط الحق بالباطل؛ لذلك قرر هذه التقريرات. المهم عندنا الآن أن الله سبحانه وتعالى يتكلّم كلاماً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته ليس ككلام المخلوقين، فلا نشبه كلام الله بكلام المخلوقين، نثبت له الصفة كما يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾⁽¹⁾، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لَبِشٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾⁽²⁾، هذه الآيات وغيرها كثير يدل على أن الله سبحانه وتعالى يتكلّم بكلام حقيقي يليق بجلاله وعظمته. ثم إن القرآن كذلك كما وصف المؤلف وغيره هو كلام الله تبارك وتعالى، وأدلة ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾⁽³⁾، فالله سبحانه وتعالى أضاف الكلام إلى نفسه، هم يلبّسون الآن ويقولون: هذا من باب إضافة التشريف كبيت الله وناقاة الله؛ إضافتها إضافة تشريف؛ وهذا باطل؛ لأن المضاف إلى الله أحد أمرين: إما معنى أو عين، معنى من المعاني، شيء ليس له جرم، ليست له كتلة؛ هذا المقصود بالمعنى، وهذه الألفاظ أستعملها الآن فقط لتقريب المعنى وللشرح. المعنى ليس له جرم، ليست له كتلة، ليس شيئاً موجوداً تلمسه وتمسكه؛ هذا معنى: المعنى. أما معنى العين: فهو شيء له جرم، له كتلة يمكن أن تمسكه؛ هذا فقط لتقريب المعنى. الآن إذا كان الشيء معنى من المعاني، تقول: إذا أضيف إلى الله سبحانه وتعالى فهو صفة؛ كالكلام، فالكلام معنى، فإذا أضافه الله إلى نفسه؛ فهو صفة لله.

¹ - [الأعراف: 144]

² - [الشورى: 51]

³ - [التوبة: 6]

أما العين كالنّاقة: فعندما تضيف هذه الناقة إلى الله سبحانه وتعالى؛ تكون هذه الإضافة إضافة تشريف، كذلك: روح الله عيسى عليه السلام ﴿روح منه﴾⁽¹⁾، عندما تضيف الروح إلى الله سبحانه وتعالى، هذه الروح تقول هي صفة لله أم تقول هي إضافة تشريف ويكون هذا مخلوق لله سبحانه وتعالى؟ هنا صفة تشريف، لماذا هي إضافة تشريف؟ لأن الروح هذه عين وليست معنى.

هذا هو التفريق بين هذا وهذا، وهم يلبّسون ويجعلون هذا كهذا؛ وهذا باطل.

قال المؤلف: **(والقرآن كلام الله وتنزيله ونوره وليس مخلوقاً).**

من الأوقات العظيمة التي ظهرت فيها هذه الفتنة، كانت في زمن الإمام أحمد؛ القول بأن القرآن مخلوق، عظمت وكبرت في زمن الإمام أحمد؛ لأنه قد تبناها أحد الخلفاء وهو المأمون، تبني هذه العقيدة لما كان في حاشيته أحد المعتزلة وهو أحمد بن أبي دؤاد؛ لبس على المأمون ولقنه هذه العقيدة؛ فأخذها وتبناها وآمن بها وصار يدعو إليها وامتحان العلماء بها، فمن يقول القرآن مخلوق؛ يتركه، ومن يقول القرآن غير مخلوق؛ يقتله أو يعذبه، وعلى هذا مضت المحنة وابتلي العلماء حتى مات المأمون، وجاء من بعده المعتصم، ومات المعتصم وجاء من بعده الواثق، وبقيت هذه المحنة، والعلماء يُمتحنون ويُبتلون بها، فمات من مات وقُتل من قتل، وعُذّب من عُذّب؛ حتى أذن الله سبحانه وتعالى ورُفعت، ومن الذين ثبتوا فيها: الإمام أحمد، وكذلك محمد بن نوح رحمه الله من الذين ثبتوا، لكن الإمام أحمد كان له قدر عند الناس وله منزلة وكانوا ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد، وقد أخذ بعض العلماء هنا بالرخصة وقالوا: نحن مُكرهون وأجابوا وقالوا: القرآن مخلوق وخرجوا، لكن الإمام أحمد رفض وصبر؛ لأنها محنة وابتلاء، ولو أنه أخذ بالرخصة لافتتن الناس، فكان الناس على الباب ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد، وكثير من الناس لا يعقلون مسألة أنه قد ابتلي وأنه في حال إكراه؛ فربما حصلت من وراء إجابته فتنة عظيمة، فصبر رحمه الله وأبى أن يجيب، جلد وضرب حتى كان يُغشى عليه، سُجن، عُذّب إلى أن أذن الله سبحانه وتعالى برفع هذه المحنة.



وناظر كثير من العلماء أحمد بن أبي دؤاد هذا أمام المأمون وأمام المعتصم ومع ذلك ما كان يرجع، وأقاموا عليهم الحُجّة وبيّنوا لهم المَحجّة وبعض المناظرات قد نُقلت، فما كان لهم أي إجابة يستطيعون أن يُفحّموا بها المخالف، وظهرت عقيدة أهل السنّة وأعزّها الله بالإمام أحمد، فجعل الله سبحانه وتعالى له منزلة عظيمة ورفيعة في هذه الأمة.

الشاهد في الكلام: أن هذه الفتنة عَظُمت في ذاك الزمن وكانت محنة عظيمة لكن أئمة السنّة جميعاً على قولٍ واحدة: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ بل قد نصّ غير واحد على أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر؛ ومنهم الإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم رضي الله عنهم؛ لأن هذا القول أن القرآن مخلوق يلزم منه أن متكلّمه مخلوق، فعندما تقول القرآن مخلوق فمعنى ذلك أن الله مخلوق؛ وهذا كفر عياداً بالله، فهنا المؤلف يقول: **(لأن القرآن من الله)** وليس مخلوقاً؛ لأن القرآن من الله فكيف يكون مخلوقاً وهو من الله؟ فإذا قلت: بأنه مخلوق؛ فيكون الله سبحانه وتعالى مخلوقاً، وإذا قلت: غير مخلوق؛ فيكون الله غير مخلوق.

قال: **(لأن القرآن من الله، وما كان من الله فليس بمخلوق)**
ما كان من الله صفةً له فهذا لا يكون مخلوقاً أبداً.

قال: **(وهكذا قال مالك بن أنس وأحمد بن حنبل رحمهم الله)**
يقول هنا: أنا لا أقول شيئاً من عندي وإنما هذا كلام أئمة الإسلام، وهكذا نتعلّم منهم؛ لا نقول بقول إلا ولنا فيه إمام؛ هذه طريقة السلفي، أما الخلفي فهو الذي ينتج من عنده وهو الذي يبتكر أفكاراً جديدة أو يحاول أن يفهم منهج السلف على رأسه وب عقله؛ كما نلاحظ اليوم في هذا الزمن: كثير من الحدادية اليوم خرجوا بسبب هذه القضية حاولوا أن يفهموا منهج السلف من عندهم وضربوا بعلم العلماء الأكابر عرض الحائط وصاروا يستخرجون قواعد ويقولون: هذه قاعدة عند السلف، وينظرون إلى منهج السلف بنظرة حجرية -يعني جامدة- كجمود ابن حزم والظاهرية في المسائل الفقهية، ينظرون إليها هكذا بجمود ويفهمونها بناءً على عقولهم القاصرة وعلمهم الضعيف، فيؤدي ذلك إلى إنتاج منهج جديد يسمونه منهج السلف،



هذا هو الحال الذي نراه اليوم بيننا، وسببه أنهم أحسنوا الظنّ بعقولهم وأسأؤوا الظنّ بعلمائهم، هذا هو سببه، وظنّوا أنفسهم أنهم أعلم ممّن غلبهم في العلم والحكمة والعقل فضلّوا وأضلّوا.

قال رحمه الله: **(وهكذا قال مالك بن أنس وأحمد بن حنبل ومن قبلهما من الفقهاء ومن بعدهما)**

يعني جميع العلماء - علماء السلف - على هذا القول: أن القرآن كلام الله غير مخلوق.
قال: **(والمراء فيه كفر)**

يعني: الجدل والمخاصمة في كتاب الله يؤدّي إلى الكفر، فلا يجوز المراء في القرآن كما جاء في الحديث: "المراء في القرآن كفر"، فيتمارى اثنان في آية أهي من القرآن أم ليست من القرآن؛ فيكذّب بكتاب الله تبارك وتعالى، أو يتماريان في مسألة من المسائل العظيمة التي يكفر بها مخالفها فيخالفها مخالف؛ فيكفر، فالمراء في القرآن محرّم.
هذه خلاصة هذه المسألة،

ثم سيبدأ المؤلف بالمسألة الثالثة: وهي رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

نكتفي اليوم بهذا القدر والله أعلم.

